التأثير الأندلسي على لباس المرأة التطوانية

د، أكدي حسن

كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس – فاس، المغرب.

د، أشبون نور الدين

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، المغرب.

ملخص: تهدف هذه الدراسة تسليط الضوء على اللباس التقليدي للمرأة التطوانية، من حيث الحرف المتدخلة فيه، والتأثير الأندلسي الواضح على مختلف أنواع اللباس التي ترتديها المرأة التطوانية، وكذا وصف هذا النوع من اللباس وطرق ارتدائه. هذا باعتباره إرثا مميزا على المستوى الوطني والدولي تمتاز به مدينة تطوان، وباعتبار التطورات الأخيرة التي طرأت عليه. وقد انتهينا بتصور واضح على مختلف أنماط اللباس النسائي بالمدينة وكذا فترات ارتدائه، وقبل ذلك بعدد لا بأس به من الحرف والصنائع المتدخلة في سلسلة إنتاجه.

وقد قمنا باستخدام المنهج التحليلي الوصفي لكل النصوص التاريخية التي اعتمدناها خلال فترات البحث، مع الاستعانة بالمقاربة التاريخية استهدفنا من خلالها توضيح التطور الذي عرفه لباس المرأة التطوانية خلال الفترة المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: اللباس الأندلسي، المرأة التطوانية، مدينة تطوان، الإرث اثلقافي، حرف الألبسة.

The Andalusian influence on the dress of Tetouanese women

Dr. Hassan Akdi
Université Sidi Mohamed Ben Abdellah
Faculty of Arts and Humanities Sais- Fez Morocco.
Dr. Nourdine Achboun
Université abdelmalek esaadi
Faculty of Letters and Human Sciences, Tetuan, Morocco.

Abstract: The aim of this study is to shed light on the traditional dress of the women of Tetouan, in terms of the crafts involved in its production and the clear Andalusian influence on the various types of dress worn by women in Tetouan. It also aims to describe this type of dress and its methods of wearing, as it is a distinctive heritage on the national and international levels that Tetouan city is known for, especially in light of recent developments that have affected it. The study also provides a clear picture of the various styles of women's clothing in the city and the periods in which they were worn, as well as the numerous crafts and industries involved in its production.

The analytical and descriptive method was used to analyze all historical texts that were relied upon during the research period, with the assistance of a historical approach aimed at clarifying the development that the dress of Tetouan women has undergone during contemporary times.

Keywords : The Andalusian Dress, the Women of Tetouan, the city of Tetouan, cultural heritage, the craft of clothing

مقدمة

نؤمن بأن البحث في الموضوع الرئيس الحرف والصنائع بتطوان الفترة المعاصرة "لا يندرج في باب الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي كما يبدو لأول وهلة فقط، أو كما اعتاد البعض على تصنيفه ضمن قضايا تلك الخانة بل أمكن الموضوع أن يكون –رغم طبيعته الاجتماعية –نافذة لمعالجة قضايا سياسية وعسكرية وثقافية ودينية واقتصادية، فليس هناك موضوع ما يظل حكراً على خانة بعينها، إذ الموضوعات قطعة مغناطيس لها قوة الجذب لأغلب القضايا ذات الصلة بها والمنثورة

في كل الاتجاهات (محمد البركة، 2016، ص 21). أي أنه صدى لكل ذلك، نظراً لأن الحرف والصنائع تتنوع وتتعدد بحسب الحاجة، كما أنها تخبو وتنمو بحسب الطلب، مما يعني أنها ليست دالة على الازدهار والاستقرار، بل إن ازدهار بعض أنواعها وكساد بعضها خلال فترات محددة دالة على زمانها فقط" (محمد داود، 2013، ص101).

من جهة أخرى وأثناء معالجتنا لبعض مضامين المصادر المحلية للمدينة باحثين عن أفكار أو وقائع نعزز بها وجهة نظر أو تحليل، صادفنا مدى درجة الوجود الكثيف للنساء العاميات في بعض المهن والحرف التي إما شاركن فيها الرجل أو انفردن بها. وهذا لدليل على أن المرأة كانت حاضرة ومتفاعلة في الفترة المعاصرة مهنيا. ونحن إذ نعرض هذا تتبادر لأذهاننا بعض الإشكاليات التالية:

-ما هي تلك الحرف التطوانية التي ارتبطت بصناعة الألبسة؟

-ما هي بعض أنواع الألبسة النسائية التي اشتهر بإنتاجها الحرفي التطواني؟

-أين تبرز خصوصيات اللباس النسوي التطواني؟

أولا: صناعات النسيج التقليدية

احتضنت تطوان عددا كبيرا من الخياطين، إذ عدت مصنعا تخاط به الكساوي وغيرها، فحين تفحصنا لبعض الوثائق المخزنية تتضح أهمية المدينة بالنسبة للمخزن في تمكنها من تلبية مختلف احتياجاته المتعلقة بالملابس، وبكميات كبيرة، و بمختلف الأنواع والأشكال «اشرع في خياطة ثلاثة ءالاف كسوة مثلثه من المركان الخام الصحيح بالفليرة الصحيحة، واجعل زيادة عليها ثلاثماية كسوة مثلثه أيضا قمصها وسراويلها من المركان المقصور وقشاشيبها من الذيمي ولا تك الملون مخيطة بالحرير ولابد، وعند كمال الجميع طالع علمنا الشريف» (محمد داود، 2013، ص105).

هذا القطاع النسيجي تنوعت فروعه وتخصصت في إنتاج بضائع بعينها، لذلك وجدنا حسب ما وفرته الوثائق ما يلي:

1. الحياكة

كانت جد مزدهرة بتطوان منذ أن تم تأسيسها ويعبر عنها بالعامية بـ «تدرازت»: «وصناعها رجال، إلا المناديل من الصوف أو القطن، فإن النساء وغالبهن بدويات، يحكنها» (أحمد الرهوني،2012، ص222). هذه الحرفة عرفت انتشارا مهما بالمدينة وقد ظلت تعتمد على المنوال التقليدي الذي عرف باسم المرمة، أما المناديل فكانت تحاك بواسطة المقطع.

2. صناعة الحرير

ازدهرت كذلك بالمدينة، إذ كان أهل المدينة يعتنون بتربية دودة الحريرة، « وهاذه الحرفة قليلة جداً، بعد أن كانت كثيرة، إذ كانت هنا طرازات لصنع سباني الحرير وخوامي ... وغير ذلك » (نفسه، ص223)، بل مطالعة الوثائق المخزنية تدلنا بأن المدينة استطاعت أن تقدم وبإتقان منسوجات حريرية على اختلاف أشكالها للسلطان « اختر أجود الكرية هناك، وفصل ثلاثمائة منصورية لكسوة الخدم، تخاط بالحرير، تكون متسعة بعضها خمسة أذرع ونصف...وفصل مائة قفطان من ملف ألط ملونة متسعة من أربعة أذرع ونصف إن كان وافي المنكب، وخمسة إن كان قصيرة، مفتوحة إلى أسفل تخاط بالحرير والسفيفة » (رسالة سلطانية إلى محمد أشعاش، 1827م،ص99). وللقيمة المالية لهاته الصنعة كان «جل الناس يغرس في جنانه أو غرسته عددا من أشجار التوت، حتى إذا انتصفت الليالي، اشترى أهله أوقية أو أكثر من زريعة الدود، وربوها على القاعدة المقررة، حتى تفرخ ثم يصيرون على أكل أوراق التوت، حتى تنتشر في البيوت إنتشارا كبيرا، ثم تصير تغزل خيوط الحرير على لوزتها، إلى أن تنسد عليها، فتجمع في الأطباق، ويذهب للدور التي عندها آلات استخراج الحرير منها» (عمدة الراوين، ص246).

ويشار إلى أن هاته الصناعة أسهمت في بروز مجموعة من تجار المدينة استثمروا أموالهم بشكل كثيف فيها جعلتهم كبار تجار المملكة وأنشطهم، يوزعون الحرير التطواني وغيره في مختلف المدن وببعض الجغرافيات الأجنبية كذلك، وهذا ما يتأكد عند داود قائلا «وكان من بين تلك السلع المرسلة من تطوان إلى فاس، قناطير مقنطرة من الحرير على اختلاف أنواعه، فهذا

الحرير التطواني، وهذا الحرير البيروتي...وآخر الحرير الزورة والحرير الغلماطي، والحرير البرجي، وأخيرا الحرير الغرناطي» (محمد داود، 2016، ص218).

3.صناعة القطن

كانت للقطن عدة مناسج بالمدينة فكان يأتي مصنوعاً بألوان متعددة في لفافات صغيرة، من الجزائر البريطانية، وهو ما يدلنا على كثرة خدمته قديما، بل الرهوني يصرح بخصوص هذه الصناعة في مؤلفه قائلا: «كانت هاذه المدينة محلا لزراعة القطن... في الوقت الذي كان عدد المرمات التي تصنع ثياب القطن في هاذه البلدة. يزيد على ألفين» (عمدة الراوين، ص221).

4. صناعة الكتان

وفر مجال المدينة بقعاً لزراعة الكتان «حتى كان يوسق من حبها للخارج مقدار غير قليل» (عمدة الراوين، ص220) وكان لمصنوع الكتان التطواني أكبر سوق بفاس ومراكش الحمراء. أما القبائل الجبلية فهي كثيرة إذ أنهم مازالوا يعتنون بزراعة الكتان على نسبة ما عندهم منها. ويشار أن للجنانات التي كانت تحيط بالمدينة أهمية للحرفيين في توفير بعض المواد الأولية ذات الأصل النباتي، كما شكلت صيفا مجالات لإنجاز بعض الأنشطة الحرفيه بها.

5.صناعة الخياطة

كانت حرفة منتشرة جدا بين المسلمين وغيرهم بالمدينة وقد انقسمت إلى:

الخياطة العسكرية

كتب السلطان المولى عبد الرحمان لعامله على تطوان محمد أشعاش يأمره: «اشرع في خياطة ألف كسوة زيادة على ما أمرناك به قبل أثلاثها ألط وقمصها وقشاشبيها وسراويلها من الكريه الجيدة والكل تكون فصالة متسعة خصوصا ما تحت الإباط فإن من هناك يبتدئ الفتق وخياطة الكتان بالفليرة الصحيحة (...) ونبه على جعل الينافق تحت الإباط (...) ولتكن الخياطة للذي يخاط بالفليرة من الجرزيان الصحيح الأصيلي فإن المكبب لا صحة فيه» (فاطمة العيساوي،

1989، ص62).

يظهر أن المخزن من خلال مضمون المراسلة يضع شروطا ومواصفات دقيقة تخص الألبسة العسكرية لجنوده وضباطه لحرصه الشديد على الجودة، وهو ما يشير له صاحب تاريخ تطوان في مراسلة سلطانية أخرى لأشعاش جاء فيها: «وبعد، فبوصول كتابنا هذا إليك، اختر أجود الكريه هناك وفصل ثلاثمائة منصورية» (خديجة بن بوسلهام، 2006، ص321). هذا التميز جعل تطوان نموذ جا في الإتقان والجمالية التي تخص الكسوة العسكرية إذ كتب نفس السلطان إلى عبد القادر أشعاش قائلا: «كنا نأمر بخياطة الكسوة في الصويرة وأزمور والرباط وطنجة وحين تأتي الكسوة من عند والدك يتسابق الناس إليها ويظن من يقبضها أن غيره أوشر عليه بها لما هي عليه من الإتقان والجودة في كل شيء» (فاطمة العيساوي، 1989، ص72).

وهناك الكثير من المراسلات المخزنية التي تؤرخ لهاته الحرفة المخزنية بالمدينة في جوانب مختلفة كتخصيص تجار كبار من تطوان يتكلفون بشراء الثوب الكافي لتلبية مطلب المخزن في إنتاج كسوة الجيش النظامي. «إشتر لجانبنا العالي بالله من الملف ألط الجيد خمسة ءالاف ذراع على لون المثالين الواردين عليك ...فقد أردناه لكسوة جيش النظام» (رسالة سلطانية للحاج محمد الرزيني، 1845م، ص162).

الخياطة المدنية

حين نطالع الفصل الخاص بالملابس التطوانية الذي كتبه صاحب تاريخ تطوان في التكملة (محمد داود، 2016، ص503). نجد أنها متنوعة: الرجالية أو النسائية منها، وسواء كانت خاصة بالأغنياء أو بالفقراء وهو ما يؤكد أن جزءا كبيرا منها كان ينتج محليا من طرف صناع ومعلمي الحرفة الذين كانوا يجتمعون في دكاكين خاصة يسهرون على تلبية حاجيات الآهالي بجميع أنواع الثياب التي نجد منها: للرجال: القمجة، المنصورية، البدعية، الصدرية، التشامير...، للنساء: القفطان، الحنطوز، الشدة، الحياك، الطوازن... (محمد داود، التكملة، 2016، ص 504).

وللسمعة التي كانت تمتاز بها هذه الحرفة بتطوان، كان المخزن يطالب خدامه بتوفير أنواع معينة مدنية، تتوفر فيها الشروط التي عادة ما تدون بالمراسلات « إشرع في خياطة ألف واحد من المناصير النسائية، منها ثمانمائة منصورية من مركان الخم الجيد الصحيح، مخيطة بالخيط الصحيح من جيد أنواع الفليرة في غاية الاتقان وزيادته الفتاحي، ومنها مائتا منصورية بالتثنية من الأبيض مخيطة بالحرير، وزد على ذلك مائة مفردة وعشرون قفطانا من ملف ألط الأحمر مخيطة بالحرير نساوية » (رسالة سلطانية إلى القائد عبد القادر أشعاش، 1849م، ص343). كذلك تتضمن رسالة أخرى، ص370). بل الطلب على المنتوج المحلي مركزيا يتوالى بشكل ملفت خلال المرحلة، حتى لخاصة القوم من أمراء القصر وحاشيتهم « إصنع لأصحاب ولدنا الأبر سيدي محمد أصلحه الله، كساوي على عددهم، فهم مائة واثنان وخمسون على حسبما يشير به، فالعدد الذي يعين له فرجيات الملف وكساوي الكتان الجيد بفرجيات الذيمي أو الجين ولنكي، إجعلهم مثل الكساوي التي كنت توجه لنا قبل، والباقي بأثلاث ألط وقشاشيب وقمص وسروايلات من المركان مثل ما وجهت قبل أيضا مخيطة بالفيرة،...» (رسالة سلطانية للقائد محمد أشعاش، 1839م، ص285). والحرفة تنظيميا كانت تضم حنطتين، إحداهما خاصة بالخياطين المسلمين والأخرى بالخياطين اليهود.

6.صناعة الصباغة البلدية

نعلم أن هذه الصناعة كانت ذا صلة وثيقة بعدة حرف، وهي صناعة تكميلية للعديد منها قبل أن تصل لمراحلها الأخيرة، كصباغة الزليج والفسيفساء...، إلا أن أبرزها تظل صناعة النسيج التي تمثلت في صباغة الصوف أو القطن أو الحرير فكان محل اشتغالهم يسع كثيرين يسمى بالصباغين وخصصت قناة ماء مهمة بهم على بعد من محلهم (قناة الصباغين). ولا يشك أحد في كون أن عدد الصباغين كان كثيرا ومناسبا لوجود الصناعات الأخرى (تحفة الإخوان، ص30) ومن المواد التي وظفتها بالمدينة سواء النباتية أو الحيوانية أو المعدنية نذكر الآتي:

القشينة أو الدودة القرمزية: عبارة عن حشرة كانت تستورد خصوصاً من إسبانيا، ويستخرج منها، بعد تجفيفها وسحقها، مادة حمراء. ومن الأمثال التي تعكس خبرة المغاربة في عمليا الاهتمام بالقرمز وجمعه.

الفوة: نبتة تنمو بوفرة بضواحي مراكش، ويستخرج منها مادة ذات لون وردي ورماني. ويشار أنها استخدمت في علاج الكثير من الأمراض، وكان يستخدمها المصريون القدمى لاحتوائها على ألوان طبيعية لصبغ الجلود.

الليرون: نبات غابوي ينمو بالمغرب ويعطي مادة ذات لون أصفر، وهو النبات المعروف بمخلب العقرب الأبيض عند شجاري الأندلس. وغيرها من المواد التي يشرحها ويفصل فيها أحد الدارسين.

غير أن ما يؤكد هنا بخصوص هاته الصناعة ذات الطابع الكيماوي في طرق وقواعد إنتاجها فالمعلم التطواني نهل مما تركه الأندلسيون من إبداع فيها لتفوقهم في علم الكيمياء المرتبط بميدان الصناعة. ومن جهة فإن العلاقة بين الحرفتين تظل طبيعية لكون المساعدين الطبيعيين لنساجي الصوف والحرير هم الصباغون. فقد كان النساج بعد انتهائه من غزل الصوف وفتل الحرير، يزود الصباغ برزم وحزم لا سيما من الصوف لصباغتها. كذلك ارتبط الصباغون بحرفة الجلود، فبعد دبغها يتم توجيهها إلى مرحلة التلوين بحيث يتم انتقاء الجلود المدبوغة المراد صباغتها، لتأتي مرحلة التلوين التي كانت تتم عبر طرق عديدة، من أبرزها:

–وضعها في مركل أو حوض مخصص لهذه الغاية لمدة عشرة أيام لتتشبع بألوان الصباغة، وذلك قبل أن تكون قد مرت بعملية التنقية والغسل باستعمال مواد كالجير وفضلات الحمام أي بعد دبغها.

–وضعها في إناء أو برميل، ثم إضافة الأصباغ المراد بها صباغة الجلود.

–صباغة الجلود بطريقة الرش أو باستعمال الفرشاة. وكانت الألوان المستعملة في صباغة الجلود تستخرج بالأساس من قشور الرمان والزعفران ومواد طبيعية أخرى

وابتاءاً من 1856م، سيتوصل أحد الكيميائيين الإنجليز إلى استخراج الملونات الكيميائية من قطران الفحم مما أدى إلى تغير الأمور بالنسبة للصباغة الطبيعية، وبدأت الصباغة الكيميائية الأجنبية تغزو الأسواق المغربية ليتراجع بريق الصباغة المحلية البلدية التي كانت معروفة بالمغرب لعدة قرون. أضف إلى هذا أن الاتفاقية الإنجليزية ل 1856م، والتي فتحت السوق المغربية أمام المنتجات الأجنبية ستزيد من تأزيم واقع الصناعة أكثر.

ثانيا: نماذج من الألبسة والحلي النسوية التطوانية

تعتبر طريقة اللباس وأنواعه واختلاف ألوانه ورموزه المتضمنة فيه من خلال التطريز والزخاريف والأشكال التي تميزه تراثا ثقافيا لاماديا، يختلف من منطقة لأخرى بحسب ثقافة المجتمع وبيئته الطبيعية وحمولته التاريخية. كما أن اللباس هو أحد المفاتيح التي تغني الحضارات وتميزها ثقافيا عن بعضها البعض. فمن خلال طريقة وشكل اللباس، يمكن تحديد العرقيات والمعتقدات والمسلمات التي تحتضنها الجماعات. أيضا عن طريق ذلك يمكن التمييز بين المرأة والرجل والغني والفقير في المجتمع الواحد. كما تحدد الأزياء حجم الرقي والتطور البشري الذي وصل إليه المجتمع والجماعات.

واللباس التطواني لا يختلف كثيرا عن أنماط وأشكال اللباس المغربي الأخرى ولكن رغم ذلك فالشخص التطواني له لمسته الخاصة بالأزياء منبعها التأثر بعدة ثقافات، خصوصا وأن الموقع الجغرافي للمدينة يسهل عملية ولوج التجار والرحل مما يجعل الاستقرار بها ولو مؤقتا أحد روافد الانصهار الثقافي من مختلف المارين بها، وهذا واضح على الزي التطواني الأصيل. هكذا كانت لهجرات العائلات الجزائرية التي قصدت تطوان في مختلف الفترات التاريخية، تأثير في مسار الحياة الاجتماعية بمختلف مظاهرها في المدينة ومن ذلك بالطبع تأثيرها في طريقة اللباس، (داود حسناء، 2019، ص 147). التأثير الأكبر هنا كان للعنصر الأندلسي فبعد الهجرات الأولى للموريسكيين نحو المغرب، استقر جزء منهم بتطوان وهنا بدأت المظاهر الأولى لهذا التأثير، لتستمر جماعات الموريسكيين الفارين من جحيم التقتيل والإبادة في الوصول لتطوان بمراحل مختلفة حتى الطرد النهائي، الذي اصطحب فيه المهاجرون لتطوان كل الفنون المتعلقة بالزي

الأندلسي كالطرز والحياكة والتلوين والترصيع. وهذا التأثير مازال يترجم في اللباس التطواني الأصيل وخاصة لباس المرأة الذي برع فيه الأندلسيون بشكل ملفت للانتباه عن باقي الحضارات الأخرى، ساعدهم في ذلك حجم الترف والبذخ الذي وصل إليه الأندلسيون قبل الغزو الصليبي. "يعتقد أن سكان تطوان كانوا ميالين إلى التأنق في اللباس حريصين على المظهر اللائق في سائر الفصول، والنظافة والأناقة، وهذه المظاهر تذكرنا بحديث المقري عن الأندلسيين في هذا المجال، حيث قال: «وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك ما يتعلق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلا قوت يومه فيطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه، لا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها" (نفسه، ص 148). فالأندلسيون اعتادوا ذلك واستصحبوه في مهجرهم وتركوه في أحفادهم، فورثه سكان تطوان وهذا مازال قائما لحدود اليوم، نظرا لحب الساكنة للتأنق واللباس المميز والغالي خصوصا ذوي الأصول الأندلسية.

1. لباس المرأة التطوانية

لباس متنوع ومتعدد الأصول ذو دلالة اجتماعية، إذ اختلف لباسها، من لباس البيت إلى لباس الخروج منه من أجل التبضع أو صلة الرحم إلى لباس المناسبات والأعياد، ولكن أهم ما ميز لباسها هو دلالته الواضحة على هويتها المسلمة التطوانية المغربية الأصيلة، ومعتقداتها المتضمنة في العقيدة الإسلامية السمحة من خلال مظاهر الوقار والحشمة في زيها، هذا المعطى كان الأهم في اختيار المرأة التطوانية لملابسها، حيث أنها لفتت انتباه العديد من الدارسين للمجتمع التطواني في فترات مختلفة من التاريخ من بينهم Angel Cabrira عالم النباتات الإسباني أثناء قيامه ببحث في شمال المغرب عن الغطاء النباتي بالمدينة، الذي وصف النساء التطوانيات بالنساء المحتشمات. كما يختلف كليا لباس المرأة في المدينة عن لباس المرأة القروية التطوانية. ففي إطار البحث الميداني الذي قمنا به، اتضح أن اللباس التطواني النسائي وإن اختفى نسبيا وخصوصا منه اللباس المنزلي واليومي، إلا أنه مازالت ملامح منه بالنسبة للباس المرأة في المناسبات. حتى أن هناك مصممين عالميين استوحوا تصميماتهم منه، هذا بالنسبة للمرأة في المدينة أما المرأة القروية ماتزال متشبتة بلباسها وزيها الأصيل. وقد نادت مجموعة من

الجمعيات المهتمة بالتراث الثقافي بضرورة الحفاظ واسترجاع اللباس التطواني النسائي. ويعتبر التطور السوسيو اقتصادي والتاريخي الذي عاشته وتعيشه تطوان عاملا مهما في تطور اللباس التطواني الأصيل، واندثار جزء من ملامحه حتى في المناسبات الثقافية التي من شأنها أن تعيد له قيمته التاريخية والحضارية.

وفي هذا الجزء من مقالنا سنحاول تسليط الضوء على مجموعة من الملابس القديمة والتراثية التي تعودت المرأة التطوانية أن تتباهى بها في مختلف المناسبات ومجالات الحياة سواء المرأة المدينية أو القروية. والتي من خلالها ستبرز مجموعة من الفنون كالترصيع والطرز التي تميز بها التطوانيون وأجادوا إتقانها وتوارثوها أبا عن جد، وحتى الفنون المرتبطة بلباس المرأة من تجميل وتزيين. فالمرأة في تطوان تغطي رأسها عند البلوغ بقطعة ثوب حريري رومي مربعة تسمى "السبنية"، وبقرب الزواج تبدلها بقطعة ثوب حريري رومي مربعة تسمى "سبنية د البحر". وبعد الزواج غالبا ما تلبس "الحنطوز" وهو مأخوذ من النساء اليهوديات اللواتي يلبسنه أيضا. أما المرأة المنتمية للأسر الثرية تتزين بعدد من الأدوات من أعلى الرأس إلى أسفل القدمين فتضع على رأسها العصابة وهي إكليل من الذهب أو الفضة، وقد حمله المورسكيون معهم لتطوان في مطلع القرن الثامن عشر (السعود عبد العزي،2007، ص257). ورغم أن لباس المرأة التطوانية لا يختلف كثيرا عن لباس المرأة المغربية إلى أن خصوصياته البسيطة، جعلت منه علامة مجالية تميز المرأة بالمدينة عن غيرها.

جدول(1): وصف لباس المرأة التطوانية		
اللباس	نوع المرأة	الوصف
الحايك	المدينية	عبارة عن قطعة غير مخيطة يتراوح طولها في الغالب بين 4 و 6 أمتار ولا يقل عرضها عن المتر والنصف حسب الذوق والبنية الجسمية للمرأة، ويتنوع نسيجها بالاختلاف الفصول ترتديه خارج البيت فوق لباسها المنزلي أو لباس المناسبات. حيث تلتف فيه من الرأس حتى الأرجل بتمرير أحد أطرافه المتقدمة من تحت الإبط ليلتقي بالطرف المتدلي منه على الكتف ويربط طرفاه على الصدر من الجهة اليسرى. يصنع من الصوف أو القطن أو الحرير بحسب الموسم.
أشمال	القروية	"هذا النوع من اللباس هو نوع من الحايك الذي تضعه المرأة فوق رأسها فيكتفي بتغطية الرأس ثم يرد طرفاه عليه من الأعلى وهو منسوج من الصوف الخاص
البدعية	المدينية	سمي أيضا بالصدرية لأنه يوضع على الصدر فقط ولا أكمام له، حيث يعتبر من الملابس الداخلية، يصنع من الحرير والقطن أو المليفة أحيانا.
القفطان	المدينية	ترتديه المرأة في المناسبات وهو يصنع من أنواع مختلفة من الثوب تختلف في الجودة جلها من الحرير "الطفطة" "المؤبر " "الأطلس" أو صوفي "الملف" "مرينو". ويكون مفتوحا من الأمام ذو أكمام واسعة مرصعة ومطرزة بأنواع مختلفة من شغل المعلم.
الدفين	المدينية	يكون فوق القفطان قد يكون طويلا وقد لا يتعدى منتصف الساق أما الأكمام فتكون طويلة ضيقة وقد تكون قصيرة لا تتعدى المرفقين. ويكون مفتوحا من الأمام من ثوب شفاف أو خفيف كثوب "حياتي" وألوان الدفين تكون فاتحة غالبا.
اللثام	المدينية	عبارة عن ثوب مساحته متر مربع تقريبا. تغطي به السيدة وجهها من فوق الأنف في اتجاه الأسفل ويربط خلف الرأس، مطرز من الجوانب.
الطوازن	المدينية	جوارب ترتديها المرأة إلى حدود الركبة من ثوب غير شفاف ومطرز من الأسفل.
السبنية	المدينية	تضعها المرأة منذ بلوغها حيث تضع فوق رأسها منديل أبيض يسمى بالسبنية المسلولة وفوقها سبنية البحر وهي منديل مربع من الحرير المطرز بأنواع الزهور والنباتات يوضع بعد أن يصبح مثلثا لتوضع فوقه ما يسمى بالهليكة وهي منديل خفيف مطروز يطوى ويعصب به الجبين بعقدة في مؤخرة الرأس
الشربيل	المدينية	حذاء جلدي يطرز بالحرير أو خيوط مذهبة تسمى الصقلي، يشبه بلغة الرجل يلبس في البيت.
المصدر: من إنتاج الباحث بالاعتماد على كتاب حسناء محمد داوود، تطوان، سمات وملامح من حياة الاجتماعية		

صورة (1): القفطان التطواني الأصيل

المصدر: عدسة الباحث -المتحف الإثنوغرافي بتطوان

2.الحلي عنصر أساسي في لباس المرأة التطوانية

تتوفر تطوان على عدد لا بأس به من الحرفيين اللذين يمتهنون حرفة الصياغة وصناعة الحلي سواء من الذهب أو الفضة، اللذين اكتسبوا هذه المهارة عن طريق الوراثة من الأباء والأجداد، وأهم ما يتميز به الصانع التطواني في هذه الحرفة هو إتقانه لها في مجمل سلسلتها من صهر المعادن إلى التلميع والنقش، وهذا من الأشياء النادرة جدا في حرفيي الصياغة بالإضافة إلى إبداعه فيها وابتكاره لأشكال ونماذج جديدة. فخلال البحث الميداني

التقينا بمجوعة من الحرفين اللذين عرفوا بإبداعهم فيها، ومارسوها في مختلف مراحلها حتى أصبحوا يتقنوها ويعلمونها للمتعلمين. فمنتوج الصياغة المتعلق بالمجوهرات والحلي، لا يتوقف الطلب عليه سواء من داخل المدينة أو خارجها، ولها قيمة كبيرة ومطلوبة في السوقين المحلية والوطنية، لما لها من جودة ومظهر خاص، وتصنع غالبا تحت طلب الزبائن اللذين يبحثون عن الأشكال الفريدة للحلي.

إن أكثر ما أعطى للحلي قيمتا، هي تعلق المرأة التطوانية بها، في لباسها خلال المناسبات وغيرها، إذ تختارها بعناية من أجل التزين بها، لدرجة أن المرأة في تطوان التي لا تملك الحلي كأنها جسد بلا روح، حتى وإن كانت تملك أشياء أخرى.

ومن بين أهم الحلي والمجوهرات التي كانت تتزين بها المرأة في تطوان مايلي:

الخناق: عند زيارتنا للحاجة خدوج الطباخة، وفي إطار الأسئلة التي تضمنتها المقابلة بخصوص الحلي التي تلبسها المرأة في تطوان، تحدثت لنا عن الخناق بل جلبت نموذجا منه في حوزتها وهو عبارة عن خيوط كثيرة، تتضمن أحجارا كريمة وجواهر وبعض القطع من الذهب توضع عل الصدر، وتحزم على العنق بحبل حريري فيربط في مؤخرة الرقبة.

الدمليج أو الدبليج: وهو ما تزين به المرأة معصمها من أساور ذهبية خالصة منقوشة ومزخرفة.

المناكش: هي الحلقات التي تضعها المرأة في أذنيها، وفي تطوان عرف نوع من الحلقات الطويلة التي في أسفلها حجر كريم أخضر.

المسايس أو النبايل: الأساور الفضية أو الذهبية الرقيقة التي تزين المرأة بها معصمها ويكون عددها بين الخمسة والسبعة وقد يكون أحيانا أكثر حينما يكون عددها أكثر من اثنين تسمى الشرتلة.

المقافل أو المقفلة: من الأساور التي تزين بها المرأة معصمها ولكن أهم ما يميزها أنها مرصعة بأحجار كريمة.

الرفافد: سلاسل ذهبية توضع فوق رأس المرأة مرصعة بالأحجار الكريمة لرفع المناكش التي تحملهما شحمة الأذن خوفا من تمزقها.

السفيفة: شريط رقيق من الثوب الحريري الذي يرصع بالجواهر والأحجار الكريمة والبروشات الصغيرة، ليوضع فوق جبين العروس على حاشية الحنطوز.

الخلخال: يوضع في رجل المرأة، وقد اشتهرت المرأة التطوانية بحبها للخلخال وخصوصا الذهبي منه.

الخواتم: هي كل ما تزين به المرأة أصابعها، وقد برع الصانع التطواني في أشكال مختلفة من الخواتم الفضية والذهبية والمرصعة بأحجار الكريمة والجواهر.

"كان العديد من النساء التطوانيات ولازلن يمتلكن ما يسمى "الفنيق" أي المجموعة الكاملة من

الحلي الذي تتزين بها العروس" (داوود حسناء،2019، ص 175) ويضم مايلي: المدايج، الخناق، الخواتم، المناكش الخلخال، النبايل، الدمالج، الرفافد، المسايس، المقافل، القليار، تازرة، التسبيح... ومن خلال هذه اللائحة الطويلة يتضح حجم المدخرات من الحلي التي ميزت زينة المرأة التطوانية، حيث منها ما كان يستعمل يوميا، ومنها ما كان يستعمل في الأفراح والمناسبات ومنها ما كان يستعمل في المنزل.

صورة(2): نماذج بعض حلي المرأة التطوانية

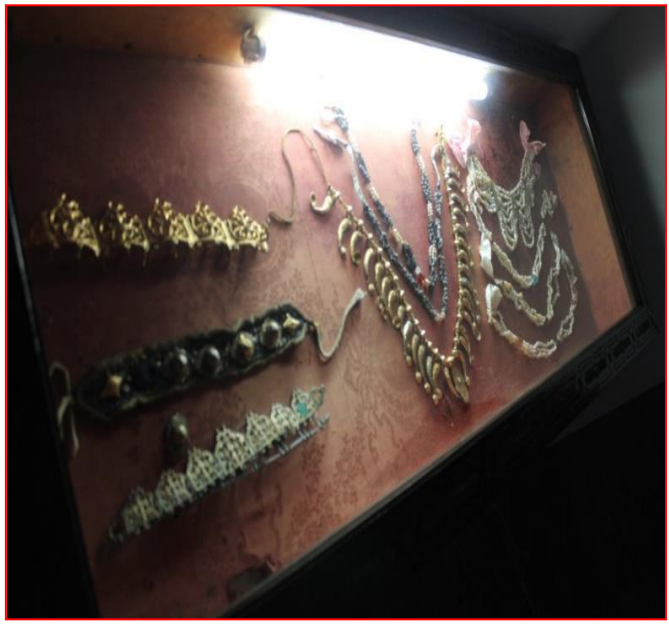

المصدر: تصوير الباحث من المتحف الإثنوغرافي بتطوان بتاريخ 2018/02/20
توضح الصورة مختلف قطع الحلي التي ترتديها عامة النساء التطوانيات في مختلف المناسبات الدينية والاجتماعية والتي تتضمن رمزية عميقة بالنسبة للمرأة التطوانية.

خاتمة

وختاما يتضح أن تطوان شكلت مجالا لعدة حرف ميزتها عن باقي المدن الأخرى، إذ توضح المصادر التاريخية انتشار مجالي دقيق التنظيم لحنطات حسب الأحياء المشكلة للمدينة العتيقة. فنجد حي القصدرين والصياغين، الحصارين، الخياطين... ارتبطت بتقاليد وأعراف وعلاقات

مهنية تدل على عراقتها وقدمها في المجتمع التطواني. ولعل الحرف المرتبطة بالألبسة النسائية أهم ما برع فيه الصانع التطواني (المعلم، المتعلم، الصانع) في مستويات مختلفة كالأشكال، الألوان، الحلي المرتبطة بها، الفئات الاجتماعية المستهلكة لها، وارتباطها بنوع المناسبات والاحتفالات المحلية (الأعراس، العقيقة...) والدينية (رمضان، الأعياد، المولد النبوي...). كما لا ننسى أن غالبية الألبسة تعود جذورها الثقافية إلى الأندلس (تصميمها، مسمياتها، طرق وزمن ارتدائها، وتقنيات تصنيعها...)، علاوة على الرافد الأمازيغي الذي يحضر في تفاصيل الزي النسائي التطواني في جوانب أخرى. وهذا دليل على التمازج والتناغم الذي يحضى به المجتمع الحرفي التطواني، والذي لازال حاضرا في جوانب محدودة خلال الفترة المعاصرة.

قائمة المراجع:

– بن الصغير خالد، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن 19 (1856 – 1886). منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 34، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط 2/ 1997.

– بن بوسلهام خديجة، المخزن والمجتمع في النصف الأول من القرن 19م، عهد مولاي عبد الرحمان بن هشام 1822–1859. بحث لنيل الدكتوراه في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط السنة الجامعية 2006/2005.

– الخمليشي عبد العزيز، مدينة الرباط في القرن 19م (1818–1912) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية. سلسلة رسائل واطروحات رقم:66، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط 1/ 2012.

– داود حسناء، تطوان، سمات وملامح من الحياة الاجتماعية. منشورات محمد داود للتاريخ والثقافة، مطبعة الخليج العربي، تطوان، الطبعة الأولى 2019.

– داود محمد، تاريخ تطوان، مراجعة وتصحيح حسناء داود، منشورات مؤسسة محمد داود للتاريخ والثقافة، مطبعة دار أبي رقراق للطباعة والنشر، طبعة 2013.

– داود محمد، التكملة ذيل لكتاب تاريخ تطوان في خطط المدينة وسكانها وحياتها الاجتماعية. مراجعة وتحقيق وإضافات، حسناء داود، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي، تطوان الطبعة الأولى 2016.

– عبد السلام بنونة، تحفة الإخوان في الصنائع القديمة بتطوان، تخريج وتقديم، حسناء داود، مطبعة الخليج العربي، تطوان، طبعة 2016.

– الرهوني أحمد، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين. تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي تطوان، (بعض الاجزاء).

– العساوي عبد الرزاق، أعيان تطوان خلال القرنيين 18–19م، محددات الوجاهة ومظاهر الحركية الاجتماعية، دكتوراه في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2015/2014.

– العيساوي فاطمة، جوانب من علاقات المخزن بالحرف 1822–1894. د. د. ع في التاريخ، نوقش بكلية الأداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 1989.

– البركة محمد، «المعالجة التاريخية للحرف والصنائع بالغرب الإسلامي، مقاربات منهجية ومعالم «تجديدية»»، ضمن، الحرف والصنائع بالغرب الإسلامي مقاربات لأثر المجال والذهنيات على الإنتاج، ج 1، سلسلة شرفات ع 76، منشورات الزمن مطبعة بني إزناسن، سلا، أكتوبر 2016، ص 21.

– لقبايبي توفيق محمد، حرف الماء الماء في تاريخ المغرب، بين التأصيل والتجديد. دراسة في تاريخ نماذج من الحرف المائية. مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى 2020.

– السعود عبد العزيز «تطوان في القرن الثامن عشر (السلطة–المجتمع–الدين)" (2007) منشورات جمعية تطاون أسمير، الطبعة الأولى مطبعة الخليج العربي.

– الوزان الفاسي الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي "وصف افريقيا" (1983) الجزء الأول، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي.